7 ـ النظام والانضباط

لن يأتي العون من أحد،
لمن لا يعين نفسه.

سوفوكلس

بماذا تفكر عندما تسمع كلمة الانضباط؟ هل هو نوع من الحكم، أم فرع من فروع الرياضة أو العلوم؟ أم أنك ترى نفسك بالزي والحذاء العسكري تقف باستعداد في ساحة المعسكر، بينما يزعق في وجهك أحد صغار الضباط الذي ربما تدرب على طريقة هتلر؟

إذاً فإن تفكيرك يشابه ما حصل معي.

إنني أَشْتَمُّ بالانضباط رائحة الفاشية.

نعم إنني آسف، لكن هذا هو أول ما يخطر ببالي.

تفوح من الانضباط رائحة الفاشية.

obeikandl.com

كنتُ دوماً على قناعةٍ، بأن المبالغة بمثل هذه الفضائل، ومَنْ يمثّلها على الطريقة الألمانية، هم المسؤولون عن نشوء القومية الإشتراكية (النازية).

ومن الطبيعي أن أستغل هذه الناحية.

فقد قادتني سلسلة أفكاري إلى ما يلي:

«الانضباط هو بذرة الفاشية.

والفاشية شيءٌ شرير.

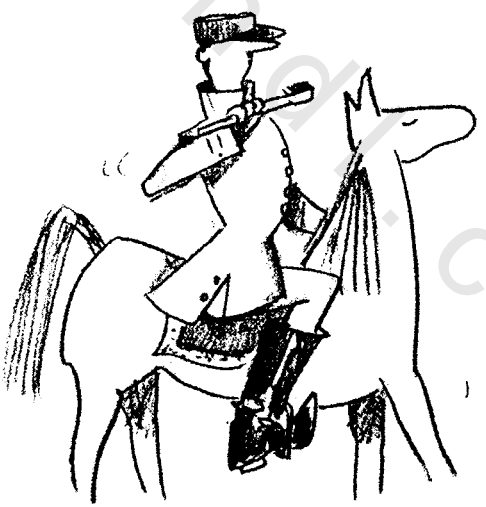

obeikandl.com

إذن فالانضباط شيءٌ شرير.

ولأنّ الانضباط شيءٌ شرير،

فإن ضده أمرٌ جيد.

فهل التكاسل إذاً أمرٌ جيد».

كان هذا التسلسل طبعاً، منطقي وجيد جداً. لأنه بذلك، أصبحت لدي الإمكانية، كي أعترف بتكاسلي الطبيعي. وأن أظن نفسي، ولو استثنائياً، على الجانب الصحيح أخلاقياً.

يشبه هذا التصور إلى حد ما، الحفر على الخشب، ولا أظن أن غالبية الناس يوافقونني الرأي. أما إذا كنت تنتمي فعلاً إلى الفئة التي يستهدفها هذا الكتاب، فإننا لا نتقارب كثيراً، وربما أتجنّى عليك، عندما أرى أنك تستشعر شيئاً من الكراهية العامة تجاه تعبير الانضباط. بعد أن برهنتُ، أن لدي تعاطفاً كبيراً وتفهماً عميقاً لهذه الصفة.

لكنك تدرك تماماً ومنذ مدة ـ وهنا بيت القصيد ـ أنه:

لا تسير الأمور ولا ينتظم شيء بدون الانضباط.

لا يسرني هذا القول ولا حتى سماعه، لكنه مع الأسف حقيقة واقعة. بدون الانضباط لا يسير شيء. لعل تعبير الانضباط الذاتي هو الأنسب، لكنه يرن في أُذنَيَّ كأنه إطناب، أو كحصان أبيض على ظهره جندي بروسي. لنبق إذاً مع كلمةِ الانضباط.

ليست المشكلة في أن يمارس الإنسان الانضباط على نفسه، كما يبدو لأول وهلة. لأنه ما من أحدٍ خال من الانضباط تماماً.

ففي كلِّ مرة تستطيع فيها أن تنهض من سريرك، تعتبر فصلاً من فصول الانضباط. وكلما ارتديت ملابسك لتخرج من المنزل، كان ذلك ضرباً من الانضباط، إضافة إلى رغبتك في عدم تهييج العامة في الشارع . كذلك كلما نَظفتَ أسنانك، كان ذلك نوعاً من الانضباط، حتى لو حصل ذلك نادراً. فأنت تفعل ذلك في بعض الأحيان، ليس بسبب ما تقوله في نفسك: (هاه، لدي الآن الرغبة لتنظيف أسناني! إن في ذلك متعة!).

إنك تفعل ذلك لتحافظ على سلامة آلة المضغ لديك أو ـ لأن رائحة إنتان الكسل تفوح منك ـ كي لا تفوح من فمك أيضاً رائحة العفن.

باختصار: إنك تفعل ذلك لأنه أمر محتم عليك .

هذا هو الانضباط وليس سوى ذلك.

الانضباط هو أن يقوم الإنسان بعمل ما، رغم كل الموانع.

ولأن ذلك العمل يجب أن يتم.

الانضباط هو: إنجاز مهمة ما، ولو تعارض ذلك مع غريزتي ودوافعي. ليس العمل غريزتي ولا هو من دوافعي،

وعندما أقوم بعمل ما رغماً عنهما، فيُعزى ذلك إلى ما هو أقوى وأشد، فمن جهةٍ يكون لضرورة وإلحاح هذا العمل، ومن ناحية أخرى بسبب الضغط الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق.

لا ينحصر السؤال، فيما إذا كنا سنحصل على الانضباط أم لا، لكن في مقدار هذا الانضباط والالتزام، ومتى نحصل عليه ولماذا.

لا يتعلق الأمر بالتقشف الذاتي أو الطاعة العمياء. بل بإزالة الغبار والصدأ عن هذه الفضائل العتيقة، ثم جلخها وإعادة طليها من جديد. يتعلق الموضوع بتحرير الخواص الأساسية من شحناتها السلبية، وجعلها مفيدة لنا. نحن لا نحتاج إلى انضباط حديدي أو قاس جداً، بل إلى نوع من المرونة والتسامح.

إننا لانذهب إلى ميدان التدريب العسكري، بل إلى العمل.

وقريباً جداً. . . إن شاء الله.

obeikandl.com

8 ـ العمل، وما أدراك ما العمل؟

الهدوء وراحة البال، وليس
العمل، هو غايَة البشر.

أوسكار وايلد

قبل أن ننتقل إلى القسم العملي من هذا الكتاب، يجب أن يكون واضحاً لدينا، ما المقصود بكلمة عمل. كثير من الناس لا يعلمون إطلاقاً، ما هو العمل.

ينطبق هذا بداية على الأشخاص النشيطين المجتهدين . إن الأشخاص المجدِّين تحديداً، لا يعلمون ما معنى العمل. وإذا ما سُئلوا عن ذلك، بكل تعقل وموضوعية، يكون ردهم غاضباً أو لا يردون إطلاقاً، وربما التفتوا جانباً وابتعدوا عن السائل كلياً، يلاحظ المرء ذلك، عندما يحرك نفسه أخيراً ويقوم من مقعده. أو ربما كان البديل أن يتلو على مسامعك التعريف الوارد في موسوعة مايرز:

obeikandl.com

«العمل هو كل فعاليةٍ منظمةٍ، هادفةٍ، مدعاةٍ للسرور، حيث تُوظَف فيها الطاقات الفكرية والقوى البدنية، أو إحداهما».

هذا كلامٌ سخيفٌ طبعاً؟.

لأن «العمل مشقةٌ كبيرةٌ، وتعبٌ وعناء».

هذه هي الحقيقة كما نراها في بعض القواميس. تعريف سهل الفهم ويحفِّز على تحاشي العمل، وهذا هو المقصود، لكن لا يهم. إنه لأمر مثير ومفزع في آن معاً، كيف يتمكن أناس بمستوى ذكاء عادي، وبهذه الأريحية والمثابرة والتحمل، أن يأخذوا على عاتقهم هذه المشقة الكبيرة والتعب والعناء ويقوموا للعمل، بدل الجلوس في ركن منعزل، دون أي حراك.

وما أن نتركهم يغيبون عن ناظرينا للحظات، حتى يبدؤوا بتشغيل كافة قواهم الذهنية والبدنية: فهم يصنعون ويعملون، يكتبون باليد وعلى الآلة الكاتبة، ينظفون ويلمعون، يحسبون ويمحون، يبنون ويرتبون، يفكرون ويؤرخون و... و... و...

وما أن يصاب أحد بنكسة، حتى تصيحون بعبارات مثل «العمل هو نصف الحياة» وما شابه ذلك من الجنون المستساغ، والذي لا يمكن أن يرد عليه الإنسان إلا ببرقية تعزية على أي حال. أما المعتوهون تماماً فيَدَّعون أن العمل

يمنحهم السعادة، أو أنهم قد وجدوا أنفسهم من خلال ذلك وحققوا ذاتهم.

نعتقد ونشعر نحن القادمين من الفضاء، أننا وحيدون ومعزولون. لكن ما يعزينا هو وجود بعض علماء طبائع البشر الذين ـ ورغم وجود نظريات مضادة ـ يمثلون وجهة النظر التي تعتبر أن هذا النشاط الزائد والحماسة الكبيرة للعمل، ليست بأي حال من طبائع البشر الأساسية، إنما هي ظاهرة مَرَضية من أمراض حضارتنا. بالتالي فلم يكن بأي حال أسلافنا الأوائل، يهرعون كلَّ صباح باكر، يسنون رماحهم، ويدقون الأسافين ويبحثون عن الجذور ـ ليجدوا أنفسهم ويحققوا ذاتهم، بل أنهم كانوا يمضون معظم وقتهم، بالتسكع ورعاية العلاقات الإجتماعية، كي يجلسوا ويتسامروا ويثرثروا عن مودة ومحبة، أو كي يفترسوا بعضهم بعضاً في النهاية.

أما تعريفنا فينص على ما يلي: العمل هو حركة، لا هدف لها ولا معنى، ولا تجلب أية سعادة للإنسان، إنها مضيعة للوقت والفكر والقوة البدنية، بينما يمكننا تمضية الوقت بشكل أفضل بالاستلقاء أمام التلفاز مع كيس من شرائح البطاطا المقلية.

لكن مع الأسف، والأسف الشديد، لا يفيدنا كل هذا الكلام، لأن أمامنا مَهمات يجب أن ننجزها. إن ما نحتاجه،

هو فهم يناسبنا لتعريف العمل، وشيء ما يقربنا من تبرير التكاسل.

لذا علينا أن نستوعب مفهوم العمل بشكل واسع جداً. لا يعتمد الأمر على منطقية التعريف أو حقيقته، لكن على الحد من تضخم المعوقات وجعل الطريق الذي أمامنا سهلاً مريحاً.

أقترح أن نكرس أنفسنا للعمل، بدل القيام به.

كما أعلم أن هذا الكلام يبدو مُلمَّعاً. لكن بإمكانكم إطفاء عود البخور: فهذا يعود كله إلى الخطة المحبوكة والمدروسة جيداً، والتي تَتَوقَّعْ وجودها وراء هذا الكتيب اللطيف غير الضار.

أود هنا أن أَصف، أين يقع الفارق، وما هي الحكمة من استخدام هذا التعبير:

إذا ما نَحَّيْنا جانباً إحساسنا الواقعي، ودخلنا في التصور الجنوني، وإذا قررت أن تقوم بطلاء جدران مطبخك بيديك وأن تبدأ ذلك فوراً ودون أي تأخير. هنا أود أن أطرح السؤال التالي: اعتباراً من أية لحظة، يمكن للإنسان أن يعتبر أنك تعمل فعلاً؟

ما الذي يتعلق بهذا الأمر، وما ليس له علاقة بذلك؟ بِمَاذا ومتى سيبدأ هذا العمل المسمى «طلاء المطبخ»؟

هل عندما يتبين لك، أنك لم تعد تحتمل رسمة الوُريدة

على الجدران؟ أو عندما تسأل نفسك: هل الأخضر الحميري، أم الرمادي لون الفطر، يمكن أن يكون أنسب لون مموّه يتماشى مع ألوان أواني المطبخ القذرة؟ أو عندما تفكر بأفضل كذبة يمكن أن تمررها على موظفي البنك، كي تصل إلى النقود؟ أم عندما تملأ خزان سيارتك، كي تذهب الى جنة المشتريات؟ هل عندما تَجُر بقوةٍ عربة المشتريات، وبها علب الدهان وغطاء الأرضيات؟ أم عندما تحمل المشتريات إلى داخل المنزل؟ أم عندما تضع اللصاقات على أطر الأبواب وتفك الأقفال؟ هذا إن فعلت ذلك. أو ربما عندما تمسك لأول مرة بالفرشاة، وهي تقطر طلاءً، وتمررها على شبكة العنكبوت التي على الجدار لتثبتها عليه؟

ما الذي يمكن أن يتبع لهذا العمل، وما الذي لا يتبع؟ وقبل كل شيء: متى يمكن لنا أن نقول، أنك قد باشرت فعلا بالعمل؟

نعم إنني أعرف الجواب: «إنه بسيط جداً بالفعل. . . أوه». تماماً. . .

منذ أن قررنا، أن نكرس أنفسنا لهذا العمل، وأن نتتبّع كل خطوة قمنا بها وكل مرحلة مررنا بها، لهذا العمل. هذا يعني أنْ نعتبر أنَّ جميع العمليات السابقة واللاحقة والجانبية من ضمن العمل.

فعندما أُوجد في موقع العمل، بنيةِ أن أكرس نفسي لهذه المهمة، أي أن أشتغل بهذا العمل. يُحسب لي مجرد وجودي هناك بهذا القصد على أنه عمل، بغض النظر عما يمكن أن أُنجزه في تلك المرحلة.

حتى وإن وجدت أن هذا التفكير، غير منطقي وغير معقول، فإنني أرجوك، أن تتابع التجربة مع هذا التعريف المتطور للعمل.

سأحاول هنا أن أقنعك، بأن هذا سينجح فعلاً، وأنك ستصل أيضاً إلى النتائج التي كنت تحلم بها على أي حال.

إن الأمر بالنسبة لي سواء، لأنني بمثل هذه الأقوال والأفكار الواردة أعلاه، كنت أحصل دوماً على عملِ كبائع متجول. ومن المحتمل طبعاً، أن تكون أنت استثنائياً من دون البشر، الشخص الذي لا ينجح معه هذا الأسلوب.

لكن إذا كنت قد نجحت سابقاً آلاف المرات، ولم تنجح هذه المرة: فهذا ليس دليلاً على أنك لن تتمكن من النجاح.

وماذا تستخلص من كل هذا؟

إنك في النهاية لستَ غبياً، بل كسولاً.